ربطة عنق من أجل جوجو

الجدران لا موضع فيها لمسمار، تغص بلوحات كبيرة وصغيرة وسجاجيد ومصابيح وساعات، ومن السقف تتدلى ثريا كبيرة تملأ الفضاء بأذرعها مثل أخطبوط، وفي الأركان والزوايا مئات التحف والهدايا والقطع الأثرية والمزهريات، وفي الوسط منضدة تحمل ثلاث مزهريات ضخمة تحيط بها مزهريات أخرى وتماثيل صغيرة وكبيرة لأسود ونمور وفهود وفيلة وقرود، مقبرة ازدحمت فيها القبور وتراكمت وتراكب بعضها فوق بعض، وفي الزوايا شجيرات اصطناعية مختلفة الألوان والأشكال، والمقاعد ضخمة عريضة واسعة كل واحدة شاحنة تتسع لمئات الأطنان، من الجدير أن تكون هذه الغرفة مكتباً لاجتماع مديري المؤسسات والوزراء أصحاب البطون الممتدةوتجار العملات الأجنبية والعمارات والسماسرة ودلالي العقارات والسيارات.

أي ورطة هذه؟ أي نفق؟ أي سرداب؟ أي قبر؟ أهذا هو الحب؟ ما كان يعرف أنها ابنة وجيه ثري، أو غني يملك العمارات والسيارات؟ وكيف يمكنه أن يعيش معها؟ بل كيف

يمكنها أن تعيش معه؟ وهولا يملك أجرة شقة من غرفتين في أفقر حي في طرف المدينة؟

وتدخل جدتها، أهلاً بسيدتي العجوز، لابد أن ينهض وأن يقبل يدها، هل ينحني لها إلى حد الركوع، قولها هو الفصل، رأيها هو الأول والأخير، هي حفيدتها، وولد الولد أغلى من الولد، وهي البنت الوحيدة، بين سبعة إخوة، لا بد من تقديم مراسيم الطاعة، يخطو نحوها، يمسك اليد الراعشة، يد متغضنة، نافرة العروق، يابسة جافة، لا دم فيها ولا ماء، ربما تحتاج إلى مئات أكياس التغذية (السيروم) ليعود إليها شيء من النبض، ومع ذلك فهي صاحبة القرار، هل توافق على زواج حفيدتها منه؟ وجهها أرض متشققة لم تذق طعم المطر منذ ألف عام، عيناها غائرتان في تجويفين مثل قبرين، وما هذا الكيس الورقي الذي تحمله بيدها؟ هو جميل ومزين، لعله الكيس الذي تضع فيه مناديلها الورقية عندما تبصق، العجائز يسعلن كثيراً ويبصقن، هو من غير شك من أجل مناديل البصاق الورقية، هل يعقل أن تكون فيه هدية له؟ غير معقول؟ يشفق على هذا الهيكل العظمي، يود لو يحتضنها، لو يحملها.

ويدخل الأب والأم، الملك لويس الرابع عشر وزوجته الملكة، فقط هما بحاجة إلى منادي القصر ينفخ في البوق

معلناً عن وصولهما، كما توقع تماماً، الملك يحتاج إلى هذا المقعد الضخم، فوزنه من غير شك فوق المئة، لا يمكن أن يوزن في ميزان الحمام مما تستخدمه الصبايا لمراقبة نحافتهن، كم دجاجة مشوية يتناول في العشاء؟ والأم، زوجة الملك، الملكة، السيدة الأولى، امرأة العم، حماة المستقبل، لا شك أن اسمها وارد في موسوعة دينيس لأسمن امرأة في العالم، من الصعب الخوض في تفاصيل الجسم، فهي محرجة، ولا سيما أنها ستكون الحماة.

أي ورطة هذه، ياإلهي، أهذا هو الحب؟ أيمكن أن يحب صبية هذه هي عشيرتها؟ ولم يدخل الإخوة السبعة بعد، كما لم يحضر الأعمام العشرة والأخوال العشرون، هذه هي الزيارة الأولى، لا بد من زيارة التعارف أولاً، ثم لا بد من زيارة الأم والأب، ولابد من المقدمات والتمهيدات، ولابد مما ليس منه بد، لتكون بعد ذلك الخطبة ثم يكون الزواج بعد ألف عام من السنين الضوئية، أو ربما بعد ثلاث دقائق.

متى ستدخل الأميرة، لا بد من أن تتهيأ للقاء الخطيب، ما معنى ذلك؟ هو يعرفها أكثر من أبويها، هو يحبها أكثر من أمها وأبيها ومن جدتها وكل إخوتها وسائر عشيرتها، ولكن ما كان يدري أن هذه هي عشيرتها، كما أن روميو ما كان يعلم أن الفتاة التي أحبها وعلى وجهها القناع في حفلة

الرقص هي ابنة أسرة بينها وبين أسرته ثارات وحروب، ليس الآن ثمة ثارات وحروب، ولكن ثمة وديان وجبال وبحار بينه وبين من أحب، هي تمشي على الريش، وهو منتوف الريش.

وتدخل.

هي هي، ولكنها ليست هي، يا إلهي، هل يعقل هذا؟ هي هناك عندما التقاها بالأمس في الشارع على الرصيف كانت أجمل وأحلى وأرشق، كانت هي هي، والآن، الأمر لا يصدق، ينهض، يأخذ يدها، بالأمس أخذ يدها بين يديه، قبلها، احتضنها، ضمها إلى صدره، واليوم تمد يدها إليه بهدوء، وتصافحه بأطراف الأنامل.

اصبر، لا بد من الصبر، اشرب القهوة.

القهوة التي شرباها معاً في المقصف هي الأطيب، هي أمامه هناك في المقصف، والمنضدة الصغيرة المدورة بينهما، منضدة صغيرة جداً مدورة، كالأرض الصغيرة المدورة، والفنجانان أمامهما نجمان يضيئان، هما معاً يحتضنان الكون كله، لله در صاحب المقصف، ما أذكاه، كيف اختار هذه الموائد الصغيرة، لا شك أنه شاعر أو عاشق، من غير شك ليس بتاجر، وضع يده على المنضدة، فعانقت يده يدها، لثم فنجانها في الموضع الذي شربت منه

قهوتها، قال لها: شفتاك ربيع، هي أمامه حمامة صغيرة بل فرخ حمام، ولكن المقعد الضخم كالفيل يحتويها، وبينهما المنضدة والمزهريات وتماثيل القرود والأسود والأفيال والضباع والنمور وفوقهما الثريا تنقض كالصواعق، والعجوز تراه أو لا تراه بعينيها الكليلتين، لست أدري أأكرهك أم أهواك أيتها الجدة العجوز؟ كم أنا مشفق عليك وعلى نفسي في هذا الامتحان العسير، هل حقاً ستقبلين بي زوجاً لحفيدتك الناعمة الرشيقة، بالله أخبريني كيف تعيشين في هذا الفندق الكبير ذي النجوم المئة؟ هل أنت ضيفة أو ربة المنزل؟.

لم تخبريني يا أخت روحي، ماذا أقول، عليَّ أن أحترم أبويك، يجب أن أحبهما، لأنهما أنجباك، أنت لي قدري، اعذريني، ولكن ماكنت أعلم، فقط كل ما أتمناه لو سمحت لي أمك أن أزيح الستائر قليلاً، لأرى بصيص نور، لأشم قليلاً رائحة الغبار، لا غبار عندك هنا ولا نور، أطلقيني، سأشرب القهوة، وسأنتظر قليلاً، لأجلك، لأجلهم، لأجل الكون كله، سأحررك من هذا الكوخ الفقير، لنبني أنا وأنت كوخاً حقيقياً ليس مثل هذا الفندق، هذا ليس ببيت، وأنت هنا لا تحيين، أهواك، لن أتخلى عنك، سأقبل كل الشروط، ثم بعد ذلك سنخرج معاً، سنحلق، ونطير.

- هل تأذن لنا يا عمي أن نخرج معاً.

ـ لا بأس، خذي يا بنتي مفتاح المرسيدس، إذا شئت أو الفولفو.

ـ لا، شكراً ياعمي، على الأقدام سنسير.

ـ ولكن، على كل حال، خذي هذه بطاقة اشتراكي في نادي الميرلاند والميتر هناك يعرفك، مائدتي محجوزة دائما، تناولا العشاء معاً على مائدتي، لا تدفعي أي شيء، فقط جودي على الميتر بالبخشيش.

نحلق معاً فوق الدرج، نطير، لا نهبط، بل نطير، من النافذة نقفز، نمزق معاً الستائر، ونطير، وإلى حي آخر، أزقته معتمة ضيقة موحلة نصير، هنا السير معاً أجمل ياحياتي، هاتي يدك، كم أنت رائعة، كيف أقنعت أمك، كيف أقنعت العجوز، كم أحببت العجوز، كم أشفقت عليها، غداً سندعوها لتعيش معنا، ولكن لا سنحيا وحدنا معاً، خذي هذه قطع حلوى وحبات علكة، اشتريتها لك، هي كلها من نوع رخيص، أعرفك تحبينها، هي كل ما أقدر على شرائه، ولكن يدك وهي تتناولها من يدي هي الأغلى والأجمل من الكون كله، أناملك هي الموائد والثريات والمقاعد والكنوز، أنت الثريا والمجرة والأفلاك كلها، أنت وهبتني الأكوان، حين نسير معاً في هذه الشوارع الضيقة المغبرة أحس أننا نرتحل في العالم كله، نزور الأهرامات

ونصعد برج إيفل ونركب الجندول ونعبر الأطلسي وأمد يدي ويدك معاً لنساعد تمثال الحرية على رفع مشعل الحرية، فلننعطف معاً هنا ياحياتي في العتمة إلى هذا البناء الجديد، ولنصعد الأدراج، هو غير مكتمل، تنبهي ثمة حجارة صغيرة وأكياس أسمنت وغبار وأسياخ حديد، هو مشروع بناء، مشروع شقة، الجدران ماتزال مجرد حجارة، لا زخارف ولا لوحات ولا سجاجيد، والأبواب كلها مفتوحة، لا أبواب لها، هي من غير أبواب تغلقها، والنوافذ مشرعة ولا نوافذ من خشب أو حديد تسدها، هي مفتوحة على الكون كله، لا سقف فوقنا ولا ثريات، السماء وحدها فوقنا والنجوم، وأنت أمامي، أنت الآن هي، لا هي التي كانت هناك في القصر أو الفندق، لا أعرف ما أسميه، أخبريني كيف تعيشين هناك؟ أية حياة؟ اخلعي أرجوك هذه الأقراط الذهبية والأساور والخواتم والعقود، انثريها هنا من النافذة على كل فقراء العالم، ارم هذا الشال الحريري ولتلتقطه بائعة عجوز مثل جدتك أراها هناك على الرصيف كل صباح تبيع باقات الورد والياسمين للعاشقين، ما أروعك وأنت تخلعين هذا الحذاء ذا الكعب العالي وتقذفين به إلى الأعلى، وليسقط حيث يسقط، وتنشدين: أهوى أن تتلوث أقدامي بالماء والغبار والطين، خذني إليك، سئمت هذه العطور وهذه العقود، اشتد بي الحنين إلى الأرض،

فلنفترش الأرض ولتكن مملوءة بالغبار، سئمت السجاجيد والحرير، هنا معك في هذا العري كل شيء أجمل، عذب نشيدك، يا أخت روحي، أرشفه في ضوء القمر، وهو يغسلنا بنوره معاً، يضيء لنا ولكل العشاق في العالم، عارياً لا تحجبه غمامة، ولا يغطيه جناحا نسر، فإذا الدنيا بيضاء كأنفاسك العِذاب، ولكن ما للأدراج ترتج، والحجارة ترتعش، آه انظري، هذا هو نجمي في السماء يسقط.

ويسقط الفنجان من طرف المنضدة على الأرض، وتندلق القهوة السوداء على السجادة.

كيف أفلت من يده؟ كيف طاح على الأرض؟ أهو زلزال؟ ليته زلزال.

وتنهض العجوز:

ـ لا تقلق، ياجوجو، أنا أعرف اسمك جمال، ولكن سأناديك جوجو، فداك الفنجان والسجادة، فأنت صهرنا العزيز، وخذ هذا الكيس، فيه ربطة عنق من أجلك ياجوجو.